في الكتب

# جولة في ربوع الشرق الأدنى

اذا تمثلت الأستاذ ثابت ، فلست أتمثل واحدا من الرجال وكفى ، وإنما أتخيل طريقة بأسرها من طرائق العيش ، وأسلوباً شاملا في فلسفة الحياة ، أخذ يتبلور ويتركز ، حتى تجسد في أستاذنا ثابت ، فمن الناس من يقضي حياته التي كتب له أن يحياها على ظهر الأرض ، في بلد واحد ، بل في دار واحدة ، بل في مكان بعينه من الدار . وأجرأ ما يطرأ على حياتهم الضئيلة الآسنة من ارتحال ، انتقال من غرفة في الدار الى غرفة أخرى كما يقول جولدسمث

وهذا رحالتنا ثابت أراد ان يحيا ! هوذا قد وازن بين حركة الحياة وجمود الموت ، وازن بين الأيام تدور ، وتدور حول صورة بعينها آسنة راكدة ، وبينها تزخر بأسباب الحياة ، فلم يتردد في الاختيار .. وأخذ يضرب في مناكب الأرض ، يجوس انحاء اوربا ويخرج للناس وصفا لجولته في ربوعها ، ثم يجوس في أنحاء آسيا ويذيع في الناس وصفا لجولته في ربوعها ، ثم يجوس في أنحاء أفريقيا وينشر بين الناس وصفا لجولته في ربوعها ، وهاهوذا في الصيف الماضي ، قد جال في أرجاء الشرق الأدنى وأخرج للناس هذه الجولة الجديدة ، التي نحن بصددها

وان كان القراء قد أمتعهم ما طالعوه من مشاهدات رحالتهم في اوربا وآسيا وافريقيا ، فكم تمتعهم قراءة هذه الرحلة الاخيرة التي لم تكن بين أقوام من غرب بعيد ، تربطنا واياهم صلات مهما تكن - فهي على شيء من الضعف والوهن ، ولم تكن بين أقوام من شرق أقصى لا تكاد تصلنا بهم الا روابط الانسانية الواحدة والعصر الواحد ، وانما هي رحلة بين شعوب توشجت بيننا وبينها أواصر من الرحم والقربى هيهات أن تقوى على فصمها الأيام ، وهي كما يقول الأستاذ المؤلف حقا في المقدمة « أقطار تربطنا بها روابط وثقتها أواصر التاريخ والاجتماع والدين . وزادتها رسوخا صلة رحم قديمة واخلاص عهد وعطف متبادل تذكي ناره رغبة مشتركة في النهوض ، وطموح متأجج للخلاص بأوطان مهددة ظلت ولا تزال تئن تحت أخطاء أبنائها وهم الطامعين فيها »

قرأت كتاب الاستاذ ثابت ، فكنت أتابعه في رحلته بلدا بعد بلد ، وقطرا في أثر قطر ، جبت معه - على حسابه - فلسطين وسوريا وتركيا والعراق وفارس وافغانستان ؛ وكنت أقف معه هذه الوقفات التي تطول حينا وتقصر حينا ؛ أمام روائع الآثار القديمة المتثرة هنا وهناك في ربوع الشرق الأدنى ، والتي تثير في النفس شتى العواطف والذكر . في المسجد الاقصى ، عند مكى اليهود ، في كنيسة القيامة ؛ على جبل الزيتون ، في ايوان كسرى ، في الحدائق المعلقة ، في ضريح الامام الرضى ، وغيرها ... كما خالطت واياه هذه الطوائف المختلفة ، فعرفتها معرفة حية بعد أن كانت مجرد اسماء تتردد : السامريون ، الدروز ، الشيعة ، الصابئة ، اليزيديون عبدة الشيطان وغير هؤلاء

وللاستاذ ثابت مقدرة ممتازة في الوصف الدقيق لما يشاهده باسلوب سلس فتشعر كأنما هو يتحدث اليك عن رحلته حديثا حلوا شيقا ، بحيث يترك في ذهنك صورة قوية ، كثيرا ما تميل بك الى العقيدة بانك قد رأيتها رأى العين ، ولا تكاد تقتنع بانها صورة قلمية فقط قرأتها عند الاستاذ ثابت !

كنت أشعر بحلاوة الحديث ، واندفع مشوقا الى القراءة متنقلا من بلد الى بلد . . . . ولكن لم يستطرد معي هذا الشعور في كل انحاء الكتاب ، فكأنما عز على الاستاذ ثابت أن يمتعنا متعة محضة خالصة ، دون أن يصدمنا في الحين بعد الحين صدمة عنيفة ، يضيق بها الصدر ، ويود عندها القارىء أن لم يكن ذلك الكلف على تلك الشمس المشرقة الضاحية ! وإنما أعني بتلك الصدمات ، هذه الحقائق العلمية التي ركزها في صفحات قليلة ، نثرها في أركان الكتاب كأنما يريد بها أن يبلو صبر القارىء على القراءة وجلده على احتمال العلم الصارم . وكم كنت أحب — وليس الاستاذ ثابت بالطبع مكلفا بأداء ما أحب — أن يكون الكتاب كله من ذلك النوع الذي لا أستطيع أن أقرأه الا في كتاب الرحالة الذي شاهد ورأى ،

وقد يكون من الأثرة أن أغتصب الحكم لنفسي دون القراء جميعا ، فهاهو الكتاب بين أيدي القراء فلا حاجة للاقتباس أو ايراد الشواهد .

ومع أن الاستاذ قد أخذ علينا طريق هذا الاعتراض انه انما أراد بمزج هذه تلك ، أن يكون الكتاب أداة ثقافية بجانب اللذة والمتاع ، فعلى هذا الاساس من وجهة النظر توافقه في شيء من القلق . وبعد ، فقد اشرك الاستاذ الرحالة قراءه معه في حياته الزاخرة ، وكان عليه وحده الغرم ، غرم الارتحال وعناء التسطير ، ولقراءه الغنم ، غنم الفائدة والمتاع السائغ .

زكي نجيب محمود